سلسلة كتاب البيان (٨١)

سلسلة تصدر عن مجلة البيان

الصحوة والتربية المنشودة

د. محمد بن عبد الله الدويش

الصحوة

والتربية المنشودة

د. محمد بن عبدالله الدويش

حقوق الطبع محفوظة

ح مجلة البيان ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدويش، محمد عبد الله

الصحوة والتربية المنشودة / محمد عبد الله الدويش -
الرياض، ١٤٢٩هـ

ص ٧٢؛ ١٤×٢٠ سم

ردمك: ٠ - ٤٠٤ - ٥٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ـ التربية الإسلامية ٢ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٢ ١٤٢٩/٦٨٤

ردمك: ٠ - ٤٠٤ - ٥٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أما بعد:

فمن بين ظلمات عصر التأخر والهزيمة من الله - تعالى - على الأمة ببزوغ نور هذه الصحوة المباركة على أيدي رجال آلوا على أنفسهم أن يعيشوا لدينهم وطاعة ربهم تبارك وتعالى.

وفي الوقت الذي كانت مفاهيم الدين قاصرة على مجرد التدين الشخصي للفرد، بل كان مفهوم الدين يعني لدى كثير ممن يتمثلونه العزلة والانطواء، ويعني البعد عن معايشة الواقع، ويعني أن يكون صاحبه رثَّ الهيئة، جافياً في التعامل مع الناس، بعيداً عن معايشة عصره، في ظل ذلك الواقع الذي ارتسمت فيه هذه الصورة المشوهة للتدين برز جيل الصحوة.

جيل متعلم ومثقف، جيل درس في أرقى الجامعات، بل تخرج من جامعات الغرب والشرق، ومع ذلك عاش دينه والتزم أمر خالقه وربه تبارك وتعالى.

ومن هنا آلى هذا الجيل على نفسه ألا يعيش لذاته، وأدرك أن من تمام صدق تدينه أن يسعى لإقرار هذا الدين في واقع الناس سلوكا ومنهج حياة.

وأدرك أن الأمر لن يتم من خلال موعظة عابرة، أو كلمة تقال هنا وهناك، أو إنكار على مخالف – مع ضرورة ذلك كله – فليس ذلك وحده هو الذي سيصنع الجيل المنتظر بإذن خالقه.

شمّر عن ساعد الجد، وامتطى عزيمته، وسار في طريق التغيير، سار في طريق البناءّ والإعداد، ورأى أن الأمة بحاجة إلى بناء طاقاتها وشبابها، وأن الفساد والترهل الذي ألم بواقع المسلمين لا يمكن أن يمحى إلا من خلال جهد تربوي يسعى لاستنقاذ الجيل، ولبناء جيل يأخذ على عاتقه حمل راية الإصلاح والبناء للأمة.

وكانت التجربة التربوية من أبرز جوانب عطاء جيل الصحوة وأكثرها تميزا، كانت أداة مهمة إن لم تكن أهم الأدوات في بناء الطاقات وفي التغيير الإيجابي في المجتمعات.

ورغم أهمية التجربة التربوية في العمل الإسلامي المعاصر إلا أنها لم تلق الاهتمام الكافي بها من الدراسة والتحليل، ولا تزال مساحات بيضاء وشاغرة بحاجة إلى تناولها والحديث حولها.

ومن هنا تأتي هذه المحاولة لإثارة مزيد من التطلعات والطموحات نحو عطاء أكثر تميزا لهذه التجربة التربوية، ويأمل الكاتب من القارئ الكريم أن يراعي ما يلي:

- تمثل هذه الورقات رأي فرد من الناس، والرأي الفردي لا يمكن أن يصبح منارة يطلب من الناس أن يسيروا عليها، إنما هو محاولة يأمل صاحبها أن تسهم في إثارة مزيد من النقاش والحوار للوصول إلى صورة منشودة للتربية في جيل الصحوة.

- تهدف هذه الورقات إلى إبراز معالم عامة، ومن ثم فهي ليست برامج جاهزة للتطبيق، والوقت يضيق عن تناول الأساليب والخطوات العملية، فحين نريد تناول المعالم العامة فلا بد من قدر من الإجمال لا يتسع للإجابة عن كثير من التساؤلات التفصيلية.

- أخذ الحديث منحى الخواطر والتأملات أكثر من التأصيل والبحث العلمي لطبيعة الموضوع والهدف المراد من إثارته، ومن هنا تلافى الكاتب الاستطراد في النقول والشواهد.

أسأل الله – عز وجل – أن يجعل ما سطرته في ميزان أعمالي الصالحة، وأن ينفع به، وأن يعفو عن التقصير والزلل؛ إنه سميع مجيب.

د. محمد بن عبدالله الدويش
dweesh@dweesh.com

تجربة متميزة

تعد التجربة التربوية للعمل الإسلامي تجربة ثرية متميزة - كما سبق الحديث عن ذلك - وحين نتناول أي جانب من جوانب هذه التجربة نقدا أو تقويما أو تطويرا فلا غنى لنا عن الإشارة إلى جوانب التميز.

وكما أن النقد ينبغي أن يكون وظيفيا، فلا يتحول إلى مبالغة في جلد الذات، ولا إلى إسقاط للجهود وإهدار لها، فالحديث عن جوانب التميز لا ينبغي أن يكون إطراء للنفس، أو انشغالا بالمنجزات، أو عائقا وسلاحا يشهر في وجه المطالبين بالتغيير.

والوعي بجوانب التميز يقود إلى تدعيم النجاح وتنميته، وإلى تعزيز الثقة بفاعلية التربية ودورها في البناء والتغيير الإيجابي، كما يكشف عن جوانب القوة لاستثمارها وتوظيفها.

إن التميز والثراء في التجربة التربوية للعمل الإسلامي يستحق دراسة متأنية، وحسبنا هنا أن نشير إلى أبرز هذه الجوانب.

١ -نموذج فريد:

تنوعت أدوات دعوات التجديد والإصلاح في الأمة عبر التاريخ، وارتبطت تلك الأدوات بالبيئة والظروف التي عايشتها مشروعات التجديد والإصلاح.

ورغم التقاطعات وأوجه الشبه بين واقعنا المعاصر وعدد من مراحل الضعف في الأمة، إلا أن الواقع المعاصر له خصوصيات تميزه عن غيره؛ فهو ليس نتيجة نكسة حربية أو سياسية، ولا نتيجة غزو خارجي فحسب، إنما هو تغير جوهري في مجالات حياة الأمة أفرادا ومجتمعات، وهو نتاج تراكم عوامل تاريخية عدة أوصلت مجتمعات المسلمين إلى هذه الواقع.

ومن هنا تطلب التجديد المعاصر مشروعا يتلاءم مع التحدي والواقع، ولم يكن كافيا في ذلك مجرد خطاب وعظي أو صيحات مطالبات بالعودة.

ورغم اختلاف الرؤى والتجارب المعاصرة، ورغم الصراع والجدل حول مشروع التغيير إلا أن العمل الإسلامي المعاصر اتخذ من التربية وسيلة للبناء والتغيير الإيجابي، واستطاع تطوير نموذج يتلاءم مع تحدي الواقع ومتطلباته، هذا النموذج كان فريدا لا ينتمي لمثال سابق[١].

٢ –جيل متدين:

مما تميز به واقع الأمة المعاصر انتشار التغريب في حياة المجتمعات الإسلامية وضمور التدين، والربط السلبي بين التدين والتخلف.

---

[١] هو بذلك لا يدخل في دائرة الابتداع؛ إذ هو في إطار الوسائل والأدوات.

وقد تمكنت الصحوة – بتوفيق الله وتأييده – من إيجاد جيل متدين من الشباب والفتيات يعيش دينه رغم الفتن والأمواج والصوارف، في ظل هذا العصر المليء بالفتن والمغريات، والذي سادت فيه فتن الشهوات والشبهات، وسيطرت القيم المادية.

رأينا هذا الجيل في أنحاء العالم الإسلامي كافة، يعيش في المجتمع، ويدرس في مدارسه وفي جامعاته، ومع ذلك فهو متمسك بدينه محافظ عليه، وهو يواجه بالسخرية والإيذاء، وأحيانا يواجه بالحرب والمضايقة.

ولئن كان الواقع في العقدين الأخيرين قد تغير كثيرا، وتطبعت كثير من مظاهر التدين في المجتمعات الإسلامية، إلا أن العقود السابقة التي صاحبت نشأة العمل الإسلامي وفـّ توته كانت تختلف كثيرا عما نحن عليه اليوم[٢].

وتبقى نماذج التقهقر والتراجع استثناء من القاعدة، ولا يمكن أن يكون المصدر الوحيد لتفسيرها هو الخلل التربوي، وإن كان أحد العوامل التي لا تغفل.

---

[٢] يحدثني أحد الأفاضل ممن تقاعد عن العمل التعليمي أنه حين تعين للتدريس في إحدى القرى كان مثار استغراب أهل القرية، فهو معلم وشاب يصلي الجمعة.

٣ –قيادات فاعلة:

استطاع العمل الإسلامي أن ينتج للأمة قيادات أسهمت في مجالات الإصلاح والبناء، فأنتج قيادات دعوية، وقيادات علمية، واجتماعية، وسياسية، وإدارية.

ورغم أن المنتج أقل بكثير من الطموح والتطلع، ورغم القصور في بناء العديد من القيادات، وأن المسافة لا تزال بعيدة جدا بين الواقع والطموح؛ إلا أن ما تحقق من إنجاز في هذا المجال يعزز الشعور بإمكانية تحقيق ما هو أكثر، ويمثل نجاحا يستحق الاعتناء به وتطويره، ويؤكد على أهمية السعي لاستثماره وبناء رؤية جديدة في إنتاج قيادات أكثر فاعلية وعطاء.

إن المتغيرات الجديدة زادت التحدي أمام القيادات، ورفعت شروط التميز والقدرة على العطاء، وعليه؛ فالإنجاز المتحقق في هذا المجال لا ينبغي أن يكون هو المنتهى، بل الواجب أن يمثل نقطة انطلاقة.

٤ –صحوة علمية:

العلم الشرعي قرين الإصلاح والتجديد، وأي دعوة تجديدية تتجاهل العلم الشرعي أو تهمشه وتقلل من شأنه؛ فلن تحقق تطلعات الأمة، ولن تعيدها لمنهج خير القرون.

ولقد كان من نتاج غيبة الأمة وتقهقرها أن كسدت سوق العلم الشرعي وخبأ نوره، فأيقظت الصحوة بمؤسساتها العلمية والتربوية الاهتمام بهذا الجانب، وأحيت سوقه، وما نراه من إقبال على حلق العلم، واعتناء بالتخصصات الشرعية، ومن رواج للمادة العلمية المكتوبة والمسموعة؛ خير دليل على هذا الوعي العلمي.

وثمة مؤشرات تبعث على القلق، وضمور في العناية بالعلم الشرعي، وفقدان للتوازن في متطلبات البناء الفكري والعلمي، مما يستوجب مزيدا من تعزيز هذا النجاح وتطويره.

٥ - نتاج يفوق الإمكانات:

حين نريد قياس نتاج ما فالصورة لن تكتمل أمامنا إلا حين نقارن النتاج بالإمكانات، والنجاح بالقدرات.

ولقد عانى العمل التربوي من ضعف في الإمكانات الضرورية الكافية للنجاح، فالخبرات التربوية المتخصصة غير كافية، والرؤية التربوية ترسم من دعاة أو طلبة علم أو مفكرين يملكون علما وغيرة وحماسة، لكنهم يفتقرون إلى المعرفة المتخصصة التي لا غنى عنها.

والنموذج جديد لم يكن على مثال سابق كما سبق الحديث عنه؛ فاستنساخ التجارب التاريخية، أو الاتكاء على التراث وحده غير كاف.

وليس ثمة مؤسسات تربوية تمارس دورا في البناء والتخطيط، وفي التنفيذ والتقويم.

وأوضاع الحريات في كثير من المجتمعات الإسلامية تمثل عائقا عن تحقيق كثير من الطموحات.

وبدأ العمل التربوي من حيث اختلف معه الآخرون؛ فالبيئة العامة في المجتمعات لا تدفع نحو التدين، والمدارس الشرعية التقليدية لا ترحب بهذا النموذج، ومؤسسات التوجيه وصناعة الرأي العام لا تتسق مع ما يسعى إليه هذا التيار. ورغم ذلك كله تحقق هذا الإنجاز والنجاحّ. وبغض النظر عن ارتقاء تلك المبررات لتكون مسوغا للخلل والقصور، إلا أن الواقع اليوم يفرض علينا تجاوز الماضي، والتخلي عن العفوية في التعامل مع قضية جوهرية كهذه القضية.

حتمية المراجعة

إن النجاح الذي حققته التجربة التربوية في العمل الإسلامي توفيق من الباري - تبارك وتعالى - لأولئك الذين اتقوه وأخذوا بالأسباب، وهذه الصور المشرقة لا تعني الكمال، ولا تعني انعدام الثغرات والعيوب.

ومهما بلغت الصورة من الوضاءة والنقاء فلا ينبغي أن يبهرنا مظهرها فيصرفنا عن التطلع لمزيد من النقاء، وعن المراجعة لكثير من الثغرات ومواطن الخلل.

إن المؤسسات التربوية العالمية، والأمم الحريصة على ناشئتها تراجع تربيتها بين حين وآخر، فحين سبق الاتحاد السوفييتي أمريكا في غزو الفضاء شعر الأمريكيون بالتحدي وبدؤوا بمراجعة شاملة للمسيرة التربوية، فتمت دراسة واسعة للتربيةّ الأمريكية وصدرت في كتاب بعنوان (أمة معرضة للخطر)، وقبل سنوات عديدة عكف ثلاثة من الباحثين على دراسة شارك فيها خمسة وخمسون خبيرا، واستطلعت فيها آراء مجموعة عديدة من التربويين وأولياء الأمور والأكاديميين وصدرت بعنوان (إعداد الطلاب للقرن الحادي والعشرين) وترجمت أكثر من ترجمة، وفي اليابان وألمانيا تجارب قريبة من ذلك، وثمة مراجعات كثيرة تجريها الدول والمنظمات

المهتمة بشأن التربية، وترسم هذه الدراسات معالم لما ينبغي أن تكون عليه التربية المستقبلية.

لماذا المراجعة؟

ثمت عوامل عدة تؤكد على أهمية المراجعة وضرورتها، منها:

• أن التجربة الدعوية تجربة بشرية، والعمل الإنساني مهما بلغ من التميز والإتقان لا يسلم من الخلل والقصور، ولا غنى له عن التقويم والتسديد.

• أن التجربة مرت بعقود عديدة، والمربون الذين رعتهم الصحوة وهم ناشئة أصبحوا اليوم في مواطن العطاء، والنتاج هو ثمرة التجربة، وهو يتيح الفرصة للتقويم الموضوعي؛ فالرؤى والأفكار تشرق وتغرب، والصلة بين الأهداف والعمليات تبقى فرضية ذهنية أدوات النفي والإثبات فيها لا تخلو من ذاتية عالية، لكن المنتج هو الثمرة وهو المحصلة؛ فلا قيمة للعمليات والأدوات إلا في مدى إسهامها في تحقيق المنتج.

وها نحن اليوم نملك منتجا يتطلب الفحص والتقويم ليكون مدخلا لبناء رؤية جديدة.

• أن الرؤى الإصلاحية ومشروعات التغيير رسمت هي الأخرى من خلال رؤى نظرية وتصورات ذهنية، ومرت في العقود السابقة بالواقع

والميدان الذي يفرض على أصحابها إعادة النظر فيها.

ومراجعة الرؤى الإصلاحية ومشروعات التغيير يعني بالضرورة مراجعة التربية؛ إذ هي أداة صنع القيادات والعناصر الفاعلة في المشروع.

• ما نعيشه من تغيرات هائلة: عالمية وإقليمية ومحلية، وهذه التغيرات تترك أثرها على المجتمعات، وعلى المستهدفين بالتربية، وعلى مواصفات من يؤهلون للإصلاح في هذه المجتمعات وقيادتها.

• التغير المعرفي الواسع سواء في اتساع المعرفة وتطورها، أو تنوع أدواتها، أو مصادر التعامل معها.

المراجعة المطلوبة:

الحديث عن المراجعة لم يعد خافتا بل الأصوات قد تعالت بالدعوة إليها، وحتى تحقق المراجعة أهدافها لا بد من أن يراعى فيها ما يلي:

أولاً: أن تكون جريئة واضحة؛ فالدعوات التي تنادي باستحياء، أو تلك المسكونة بهاجس الحفاظ على المكتسبات؛ لن تكون قادرة على مواجهة الواقع وتحدياته.

ثانياً: أن تكون جوهرية وتثير تساؤلات كبرى؛ فتعيد النظر في أهداف التربية، وفي محتواها، فضلا عن أدواتها ووسائلها ومؤسساتها.

والنظر إلى واقع المخرجات التربوية وأدائها، وإلى التغيرات الهائلة يجعل المراجعات الجزئية الهشة ليست ذات بال.

وإن مما يعوق عن المراجعة الفاعلة افتراض أن الرؤى والأهداف التي رسمت من ذي قبل ثوابت وقطعيات، ومن ثم جعلها محكا ومرجعية للتقويم، بل لا بد أن تخضع هي للتقويم والمراجعة؛ فالتربية الممارسة في الأوساط الدعوية عمل بشري، لا يمكن أن تتحول أدواتها ورؤاها البشرية إلى ثوابت، ولا ينبغي أن يقود سلامة منهج القائمين عليها إلى الخلط بين المنهج ومن يحمله، أو افتراض أن التساؤل حول الأداء انحراف عنه.

ثالثاً: أن تكون معتدلة تنظر برؤية شاملة، فترى مواطن القصور والخلل، وترى مواطن الإنجاز والنجاح، وتعمل في ضوء إمكانات الواقعِ.

إن المبالغة في نعي الواقع وذمه، والرؤية السوداوية، والثورة على كل قديم ليست منهجية علمية، ولن تقود إلى مشروع عملي.

رابعاً: أن تنطلق من المسلمات الشرعية، ومن ثوابت الدين ومحكماته وأصوله، وبالأخص أننا نشهد في هذه المرحلة اهتزازات منهجية.

خامساً: أن يعنى التقويم بالظواهر العامة، وأن لا يدفعنا الحرص على التدقيق في تلمس مواطن الخلل إلى تعميم الصور الفردية ومشاهداتنا الشخصية وتحويلها إلى ظواهر.

إن اتساع نطاق العمل التربوي وتعدد مجالاته ومواطنه يزيد من مفردات الملحوظات والأخطاء، ومن ثم فليست كل حالة تظهر تمثل

حالة عامة، فكثير منها نتاج أداء المربين الذين لا يمثلون الإطار العام، كما أن العمل التربوي يتعامل مع فضاء واسع رحب، والفرد يتأثر بخصائص شخصية، وبمؤثرات أسرية ومجتمعية، وببيئة تعليمية مدرسية، وكونه أحد مخرجات تربية دعوية لا يعني أن تكون هي المسؤولة عن كل جوانب الخلل في شخصيته.

التربية الإيمانية

حين تعلو فتن الشهوات وتزداد، وحين تنمو ظاهرة التغير والتقهقر يتنادى الجميع بالحاجة إلى التربية الإيمانية وأهميتها ودورها في تحقيق الثبات بإذن الله تعالى.

والحق أن التربية الإيمانية ليست لمجرد علاج ظواهر التراجع ولا لمواجهة فتنِ الشهوات فحسب، بل هي أصل أصيل، وهدف من أهم أهداف التربية بغض النظر عن الواقع الذي يعيشه المتربون؛ فغاية وجود الإنسان هي عبادة الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ٥٦مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] . وبناء عليه؛ فأهم وظائف التربية تهيئة الإنسان للقيام بهذه العبودية، وهو ما تهدف إليه التربية الإيمانية.

ورغم أن الحديث يكثر حول التربية الإيمانية وأهميتها إلا أن الواقع العملي لا زال يعاني فجوة بين التنظير والتطبيق.

وإذا تجاوزنا الخلل في التطبيق فإن الرؤية حول التربية الإيمانية تحتاج إلى مزيد من التقويم والمراجعة، ويمكن أن نسجل هنا الملحوظات التالية:

• يختزل مجال التربية الإيمانية في الرقة والخشوع؛ فينصرف الذهن حين الحديث عن التربية الإيمانية إلى الرقة والخشوع والتأثر الوجداني، وعليه؛ فوسائل تحقيقها تتركز في الوعظ والتذكير ونوافل العبادات، بينما مفهوم التربية أوسع من ذلك بكثير.

• الجانب الإيماني يحوي ثلاثة أركان مهمة، وهي:

- العلم واليقين بمسائل الإيمان وحقائقه: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا باللهّ ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك همّ الصادقون ﴾ [الحجرات: ١٥].

- صلاح القلب وتعلقه بالله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلتّ قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢].

- أثر الإيمان على حياة الإنسان وسلوكه، «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

وهذه الأركان يرتبط بعضها ببعض، ويكمل بعضها الآخر، ولا بد للتربية الإيمانية أن تعنى بها جميعا وتتعامل معها في إطار متكامل.

• يكثر الحديث عن التربية الإيمانية في إطار الانحراف المتصل بالشهوات ولا شك في أثر الإيمان في وقاية صاحبه من مرض الشهوة، لكن مرض الشبهة أكثر خطورة، وقد بدأت خطورته الآن تزداد أكثر فأكثر، مما يؤكد على العناية بالتربية الإيمانية، وحين نتعامل معها في إطار دورها في الوقاية من الشبهات فإن هذا يؤكد العناية بالإقناع بأمور الإيمان، والتأكيد على الثوابت المتصلة بالتسليم لله - عز وجل - ورسوله صلى الله عليه وسلم، والعناية بمنهج القرآن الكريم في تثبيت الإيمان.

• يحتاج من يكون حديث عهد باستقامة وتوبة إلى تزكية وإصلاح للنفس، لكن هذا لا يعني أن الأمر سيتوقف؛ فالتربية الإيمانية أمر يتجدد، ومهما بلغ الإنسان من الإيمان والصلاح والتقوى فلن يستغني عن ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»[١].

---

[١] أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك.

مهمة المربي

مما لا خلاف حوله أن للمربي دوراً فاعلاً في الموقف التربوي، فهو الذي يدير عناصر الموقف التربوي، وهو الذي يشرف على مواقف التعليم، وهو الذي يتواصل مع المتربي ويزوده بالتغذية الراجعة عن أدائه، وهو الذي يقوم الأداء والمتربين .. إلخ.

ومن دلائل أهمية هذا الدور ما نراه قديماً وحديثاً من الاعتناء بذكر شيوخ المترجمُ له، بل وعد ذلك أحد عناصر التميز.

ومهما بلغ المنهج من الإتقان والجودة؛ فالمربي غير المؤهل يضعف أثره، وفي المقابل فالمربي المؤهل يستطيع تجاوز كثير من جوانب قصور المنهج.

لكن السؤال المهم: ما الدور الذي ينبغي أن يمارسه المربي؟ يتحدث التربويون عن الدور التقليدي للمعلم، وعن الدور المفترض؛ ففي الدور التقليدي يكون المعلم في مهمة الملقن والمسيطر على الموقف التعليمي، بينما ينبغي أن تكون مهمته تيسير التعلم وتوجيه الموقف التعليمي ومساعدة الطالب على أن يتعلم.

لا تكاد الصورة تختلف كثيراً ففي الأوساط التربوية الدعوية يسيطر دور المربي التقليدي الذي يعلم ما يجهله المتربي، والذي تلقى

تربية وتأهيلا كافياً، والذي يدرك من المصالح ما لا يدركه المتربي، والذي يستطيع أن يقوله رأيه في شؤون المتربي اليومية ومشكلاته كافة.

يتأثر الموقف التربوي بهذه النظرة فيمارس المربي التلقين، ويكثر من الحديث، والتوجيه المباشر، والتصويب والتخطئة لسلوك المتربي، وفي حالات كثيرة يمنح لنفسه صلاحيات واسعة تتيح له حرية الاطلاع على خصوصيات المتربي؛ لأن ذلك مهم في تقويمه، وفي تربيته وتوجيهه!

ورغم وجود قدر من التواصل الفردي مع المتربين، إلا أنه يتأثر بهذه النظرة، فهو تواصل لأجل التلقي والاستماع والتنفيذ.

فيركز المربي على التوجيه المباشر وإعطاء الآراء والأحكام أثناء الحوار. والاستماع الذي يمارسه المربي لتلميذه يستهدف في الأغلب معرفة المشكلة وحدودها لديه.

وفي البرامج الثقافية حين تتاح فرص المشاركة للمتربين فإنها كثيراً ما تختم بتعليق المربي الذي يمثل قولا فصلاً في المسائل الاجتهادية، في الآراء الشخصية، في التعامل مع الواقع فهماً واستيعاباً، وتقديماً للحلول، في هذه الدوائر التي تتسع فيها مساحة الرأي الشخصي، وتستوعب اختلاف وجهات النظر وتعدد الآراء يجنح المربي إلى إعطاء رأي فاصل وقاطع للنزاع.

ولا ينكر أن هناك قدراً من الوعي لدى عدد من المربين، وأن هناك دعوات صادقة لتجاوز هذا الواقع السلبي، لكن التغير المطلوب ينبغي أن يتجاوز دائرة التطبيقيات والممارسات إلى طرح سؤال مهم: ما دور المربي وما مهمته؟ هل هو ملقن ومسيطر على الموقف التربوي؟ أم هو موجه وشريك؟ هل هو يسعى لمساعدة المتربي على التعلم، والوصول معه إلى فهم مشترك للمواقف، وحل مشترك للمشكلات؟

هل مهمته أن يعطي المتربي كل ما لديه – رغم ضحالة كثير مما لدى بعض المربين – أم مهمته أن ينمي قدراته ويرتقي بشخصيته؟

وهل دور المتربي التلقي السلبي والاستماع الخالي عن التفكير والتقويم؟

وهل من الظواهر الصحية أن يتربى الفرد على التسليم بكل ما يسمعه من المربي لأنه محل ثقة؟

أم هو دور نشط يمارس فيه التعلم، يحلل ويقارن ويستنتج وفي الوقت نفسه يسترشد بآراء المربي ويستشيره ويستفيد منه، وأحياناً يختلف معه؟ كثيراً ما ننقد التقليد في المسائل الفقهية، بل ربما يدعو بعضهم إلى التحرر من المذاهب الفقهية، لكننا نمارس نموذجاً ليس بأحسن حالا من التقليد.

في التقليد يتبع طالب العلم آراء عالم مجتهد تبحر في العلم وتخصص فيه، ومدرسة فقهية لها أسسها ومعالمها الواضحة، أما في الميدان التربوي فهو يتبع آراء شاب لا يزيد عنه إلا بسنوات معدودة، شاب غاية تأهيله أنه تربى بالطريقة نفسها.

إن الإصرار على النموذج التقليدي لن يخرج جيلاً فاعلاً، جيلاً يفكر ويحلل ويستكشف، جيلا ينتج معرفة جديدة، وحلولا جديدة للمشكلات.

ولقد أدى هذا النموذج التقليدي إلى حالتين: حالة تمرد من العناصر الفاعلة والمتميزة، وحالة استجابة من نموذج غير إيجابي ولا فاعل، نموذج ينتظر التوجيه والأمر ولا يستطيع الإبداع والمبادرة.

والانتقال من النموذج التقليدي للمربي يفرض علينا تحدياً مهماً؛ تحدياً في تأهيل المربين وإعدادهم والارتقاء بأدائهم، وتحدياً في إعادة النظر في العلمية التربوية وأهدافها، وفي تحديد طبيعة العلاقة بين أطرافها.

التربية المستمرة

يتركز العمل التربوي الفاعل في جيل الناشئة، في الجيل الذي يعيش مراحل التعليم.

ولا شك أن الإنسان سيمر بمراحل عدة، مرحلة يمارس فيها التعلم والتلقي، ومرحلة يسعى فيها إلى ممارسة العطاء والتربية.

لكن هذه الفواصل لا ينبغي أن تكون صارمة تماما؛ فالمسلم مهما بلغ من التقوى والصلاح والإيمان لا زال بحاجة إلى التربية والارتقاء بنفسه، وقد قال الله – تعالى – لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه : ١١٤، والعلم في مصطلح القرآن ليس قاصرا على الجانب المعرفي وحده.

وإلى قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم وهو يلتقي جبريل فيدارسه القرآن، وقد كانت تلك المدارسة عطاء تربويا يترك أثره على النبي صلى الله عليه وسلم.

وكما أن الإنسان بحاجة إلى رعاية فيما يتعلق بصلته بالله وإيمانه وتقواه، فهو بحاجة إلى تنمية قدراته الشخصية ومهاراته، وهو بحاجة إلى مزيد من التهذيب لسلوكه.

والمتغيرات المعاصرة اليوم وما تتطلبه من تكيف معها، ومن تطوير لأدوات نقدها وتقويمها والإفادة منها؛ كل ذلك يتطلب النمو المستمر لشخصية الداعية، ولن يكفيه ما تلقاه من تربية فيما مضى من عمره، مما يفرض العناية بالتربية المستمرة.

إن الإيمان بأهمية التربية المستمرة موجود، وثمت شعور بالحاجة إليها، ومحاولات عديدة لتلافي المشكلة، لكن مما يجب ملاحظته فيما يقدم لهذه الفئات ما يلي:

- أن تتعامل البرامج مع المتربي بما يتلاءم مع نضجه ومرحلته العمرية، وتتجاوز الأنماط المصممة لمن هو في مراحل التعلم والتلقي.
- أن تراعي احتياجاته، وطبيعته وظروفه.
- أن يكون له دور فاعل في التخطيط والتصميم، وفي التنفيذ والممارسة، وفي التقويم.

الدراسات العلمية

رغم طول التجربة التربوية في العمل الإسلامي، ورغم إنتاج العديد من المواد المسموعة والمكتوبة حول هذه التجربة، إلا أنها لا زالت تعاني من فقر في الدراسات العلمية؛ فمعظم النتاج يتمثل في آراء شخصية وانطباعات، أو تناول نظري لمشكلات معقدة.

لقد تطورت الدراسات التربوية والاجتماعية، ونضجت العديد من الأدوات العلمية والبحثية، وحفلت رفوف المكتبات الجامعية، والدوريات العلمية، والمؤتمرات، والندوات المتخصصة بالعديد من الدراسات التي تناولت واقع التعليم أو التربية الأسرية.

ورغم هذا الإنتاج إلا أن التجربة التربوية الدعوية لا زالت تفتقر إلى الدراسات العلمية المنهجية.

والدراسات العلمية حين تضبط إجراءاتها وأدواتها هي الكفيلة بالوصول إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها والثقة بها.

ومن هنا فالتجربة التربوية الدعوية بحاجة إلى الاعتناء بالمنهجية العلمية، وإلى توظيف البحث العلمي في دراسة الواقع التربوي ومشكلاته. ومن المجالات المهمة التي تحتاج إلى دراسات علمية ما يلي:

- التأصيل الشرعي لقضايا العمل التربوي.
- تقويم واقع العمل التربوي.
- بناء برامج وخطط تربوية.

وليس المهم الشكل والقناة التي تتم عبرها هذه الدراسات؛ فقد تنتمي لمؤسسات أكاديمية، أو لا تنتمي؛ فالمهم أن تتم وفق إجراءات علمية منهجية منظمة تقود إلى الثقة بنتائجها والبناء عليها.

أما ما يمارس في الواقع الدعوي من إعداد بعض الأدوات والاستبانات فمعظم ذلك يفتقر إلى الأساس المنهجي والعلمي، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على نتائجها والبناء عليها.

وتعقيدات الظاهرة التربوية في المجال الدعوي تتطلب توظيف أدوات ومناهج علمية غير تقليدية، وتتطلب كفاءات تمتلك خبرة وقدرة منهجية عالية.

الاتجاهات الحديثة

مصطلح الاتجاهات الحديثة والمعاصرة يتردد في دوائر عدة، والميدان التربوي أحد هذه الدوائر؛ فالاتجاهات الحديثة في الميدان التربوي متنوعة ومتعددة، ومنها:

- مجال بناء المناهج وتنظيماتها.
- مجال طرق التدريس.
- مجال تقنيات التعليم والتعليم الإلكتروني.
- مجال التقويم والقياس.
- مجال النشاطات التعليمية غير الصفية.
- مجال التخطيط التربوي واستشراف المستقبل.
- مجال الإدارة التربوية.
- مجال الإشراف التربوي.

وهذه الاتجاهات هي نتاج تجربة بشرية ثرية، وهي نتاج تراكم معرفي، ودراسات علمية منهجية.

ولا زال هناك فجوة هائلة بين الممارسات التربوية في البيئة الدعوية، وبين الاتجاهات التربوية الحديثة، بل لا زالت كثير من

الأوساط تتساءل حول جدوى الإفادة من هذه الاتجاهات، وتنظر إليها نظرة سلبية، وكأنها تنادي بالبقاء على النمط التقليدي.

والصورة الذهنية حول الاتجاهات الحديثة تختزل لدى المعترضين في بعض التطبيقات والممارسات المحدودة، أو نتاج التربية الحديثة المتمثل في المجتمعات الغربية المعاصرة.

وينادي هؤلاء الغيورون بالعودة إلى منهج التربية في القرآن والسنة، وإلى ما كان عليه السلف الصالح – رضوان الله عليهم – ففيه الكفاية والغنية.

والعودة للكتاب والسنة ومنهج السلف ليست محل جدل، لكن افتراض الصراع، وجعل الكتاب والسنة قسيما للاتجاهات الحديثة منهج غير سليم في التفكير.

وإثارة السؤال بهذه الثنائية الحادة لا بد أن يقود إلى رفض الاتجاهات الحديثةّ فحين يخير مسلم بينها وبين الكتاب والسنة فهو حتما سيختار الكتاب والسنة.

إن السؤال نفسه يمكن أن يثار في مواطن أخرى:

هل نحن بحاجة اليوم إلى الإفادة من الثورة الإعلامية وتوظيف نظريات الإعلام والاتصال والتأثير في الدعوة؟ أم نكتفي بالكتاب والسنة ومنهج السلف؟

هل نحن بحاجة إلى تطوير المؤسسات الدينية والدعوية والإفادة من الاتجاهات الإدارية الحديثة؟ أم نكتفي بالكتاب والسنة ومنهج السلف؟ وهكذا في شأن الجيوش والعلوم العسكرية، والمؤسسات التعليمية...إلخ.

ووقوع مخالفات، أو وجود خلل في سلوك من يتبنى بعض هذه الاتجاهات أو فكره ليس مبرراً في رفضها والتوجس منها.

وثمت أمور تربوية في حياتنا استقرت وأصبحت جزءاً من نظامنا التربوي وهي في م التعليمي، ونظم الخطط الدراسية، والنظم الإدارية الأصل مستوردة من الآخرين؛ فالسلفي المؤسسات والجامعات ليست مما ورثناه عن السلف، بل إن العلوم الشرعية أصبحت تدرس وتّ درس في جامعات ورثت النظام الغربي؛ فالرسائل العلمية ومسمياتها، ونظم التعليم والتقويم والمراتب العلمية... إلخ كلها مما تلقيناه من الغرب.

والفارق هو أن هذه أصبحت جزءا من حياتنا وممارساتنا فغفلنا عن مصدرها، فكيف نقبل ما أصبح قديماً وتجاوزه الآخرون، ثم نصر على رفض الجديد؟

إن التعاطي الواعي المنفتح مع الاتجاهات الحديثة أمر لا خيار لنا سواه، وهو يتطلب منا أمرين هما:

الأول: تقويم الاتجاهات ومراجعتها، وتحديد ما يسوغ أخذه وما يتعارض مع الشريعة، إما بأصله فيرفض، أو بعض تفصيلاته فيّ عدل.

الثاني: تكييف هذه الاتجاهات مع طبيعة العمل التربوي في الأوساط الدعوية، ومراعاة توافقها مع خصوصياته؛ ذلك أن هذه الاتجاهات نشأت في الأوساط التعليمية النظامية وهي تختلف بطبيعتها وخصائصها عن الأوساط الدعوية.

مجالات الإعداد

يتكرر الحديث في الأوساط الدعوية عن سعة مجالات العمل الدعوي، وعن ضرورة إعداد الطاقات والكوادر الدعوية التي تلائم مجالات العمل كافة.

لكن السؤال المهم هو: هل البرامج التربوية في العمل الدعوي تعد طاقات ملائمة لمجالات العمل كافة؟

نحتج كثيراً بمخرجات تميزت في مجالات عامة، ونستشهد بها على نجاح العمل الدعوي في تخريج هذه العناصر.

ولكن كم هم الذين لم يستطيعوا العطاء الفاعل رغم رغبتهم وإتاحة الفرص لهم؟ وهل مصدر تميز الطاقات الفاعلة هو الإعداد التربوي؟ أم أنه التميز والاستعداد الشخصي؟

وأحسب أن الأخرى أكثر تأثيراً.

إن البيئة التربوية في الميدان الدعوي ذات طابع يتسم بالخصوصية وبقدر من الانغلاق مما يترك أثره في المخرجات فتبدو أقل قدرة على التفاعل مع الواقع والفضاء المفتوح.

والإعداد للمجالات العامة لا يقتصر على مجرد التأكيد على مفاهيم العمل الدعوي، وتناول عدد من محاوره ضمن محتوى البرامج التربوية، بل هو يتطلب اكتساب المتربي لسمات وخصائص تتطلبها هذه المجالات.

كما أنه يتطلب توظيف سائر عناصر الموقف التربوي من طرق تعليم وبيئة تربوية ونظام تربوي.

إن وضوح الرؤية في تلك المجالات وبناء البرامج التربوية بما يحقق المواصفات المطلوبة لها سيعين على إيجاد المنتج الملائم، أما ما سوى ذلك فلن يحقق لنا ما نريد.

بناء الشخصية أم تحقيق التدين؟

تمحورت أهداف التربية في العمل الإسلامي حول بناء التدين وما يتصل به، واختزلت مهمة العمل التربوي لدى كثير من المربين في هذا الإطار.

وبغض النظر عن مصدر هذه النظرة وجذورها التاريخية فقد أدت إلى اختزال العمل التربوي في دائرة محدودة، وتجاهل جوانب حيوية في شخصية الناشئة.

وسرت هذه النظرة إلى كثير من الآباء والأمهات الصالحين فاختزلت تربية الأولاد لديهم فيما يتصل بأمور التدين بشكل مباشر، أو في الممارسات السلوكية الظاهرة.

والسؤال المهم: هل يقف دور التربية عند هذا الحد؟

أليس من المهم أن تعنى التربية في الأوساط الدعوية ببناء الشخصية فتعنى بتنمية التفكير، وتنمية مهارات التواصل، وتحقيق الاستقرار النفسي، وتنمية الثقة بالنفس والمبادرة، وتنمية المهارات الاجتماعية، وتنمية القدرة على التكيف والمرونة...إلخ؟

يمكن أن نصل إلى هذه الإجابة من خلال ما يلي:

١ – الإنسان كائن متكامل: الإنسان كائن متكامل بروحه وعقله وجسده، بحالته الإيمانية والاجتماعية والنفسية، ولا يمكن أن نشطره أو نتناول جانبا منه دون آخر.

وعطاء الإنسان في أي مجال من مجالات الحياة سواء ما يتصل بحياته الشخصية أو الأسرية، أو عمله الاجتماعي الدعوي، هذا العطاء هو محصلة لبناء شخصيته بشكل كامل وليس مصدره التدين فحسب. بل إن شخصية الإنسان تؤثر على تدينه وعلى فهمه للدين؛ فالذي لا يعيش حالة نفسية مستقرة، أو يعاني من مشكلات اجتماعية، أو ضعف في الإرادة وإدارة الذات؛ لا بد أن يؤثر ذلك على سلوكه وعبادته، فضلا عن دعوته وخطابه للناس، وها نحن نرى أن واقع الناس في بيئتهم وتفكيرهم يظهر أثره على تدينهم؛ فنظرة الأعرابي الذي يعيش في الصحراء وفهمه للدين تختلف عن نظرة من يعيش في مدينة عامرة، والذي يفكر بطريقة ساذجة محدودة يختلف عمن يفكر بعقلية ناضجة.

وقد نهى الشرع عن أن يصلي الإنسان وهو بحضرة طعام، أو وهو يدافعه الأخبثان، أو أن يقضي القاضي وهو غضبان؛ كل ذلك معلل بانشغال الذهن إما عن أداء العبادة، أو استجماع الفكر للقيام بمهمة القضاء على الوجه الأكمل، فإذا كان هذا في الحالات الخاصة فكيف بما يؤثر على شخصية الإنسان بصفة دائمة؟

ألا يمكن أن يستدل بذلك على أن التربية ينبغي أن تهيئ شخصية الإنسان ليمارس عبادته، ومهامه في المجتمع بالصورة التي تحقق المقاصد الشرعية؟

٢ - كيف تربى الأنبياء؟

الأنبياء هم صفوة خلق الله عز وجل، وقد اختارهم - تبارك وتعالى - وهو القائل عن نفسه ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وقد بين - تبارك وتعالى - أنه اختارهم من فئة أقدر على حمل الرسالة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ [يوسف: ١٠٩] فجعلهم من أهل القرى، ولم يجعلهم من الأعراب . قال البغوي في تفسير هذه الآية: « يعني: من أهل الأمصار أهل القرى دون البوادي؛ لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من بدو، ولا من الجن، ولا من النساء. وقيل: إنما لم يبعث من أهل البادية لغلظهم وجفائهم»[١].

ومع الاختيار من البيئة الأنسب فإنه - عز وجل - هيأ لهم من الأسباب ما له أثر في بناء شخصيتهم، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: « نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[٢].

---

[١] تفسير البغوي.

[٢] أخرجه البخاري (٢٢٦٢).

وكون رعي الغنم مما اختاره الله - عز وجل - لكل أنبيائه فهو دليل على أنه أمر مقصود، ولم يحصل اتفاقاً، أو تبعاً لبيئة عاشها بعضهم.

ومهما قلنا في الحكمة من رعي الغنم فإن أثرها على الشخصية لا يتصل بالتدين بشكل مباشر، فهو مما يسهم في بناء شخصيات الأنبياء وإعدادهم لهذه المهمة.

وحين نرجع إلى شخصية نبينا محمد ﷺ وحياته قبل البعثة فيّ الطفولة والشباب نرى كيف هيأ الله - عز وجل - له مواقف أسهمت في بناء شخصيته ﷺ ؛ من الرضاع في البادية، ورعي الغنم في بني سعد، ورعيها مرة أخرى لأهل مكة، والسفر إلى التجارة، والدخول في حرب الفجار، وحلف الفضول، والإصلاح بين القبائل في بناء الكعبة ورفع الحجر..إلخ.

٣ - كيف ربى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الناس؟

ويبدو ها هنا سؤال مهم: كيف كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه؟ وأين موقع هذه الأهداف في تربيته؟ هل كانت تربيته قاصرة على بناء التدين والتهذيب السلوكي فحسب؟ أم كانت بناء للشخصية بجوانبها كافة؟ نقرأ في كتب السنة عنايته ﷺ بالجانب الجسمي، ومن ذلك ما يلي: كان يوجه أصحابه بإبعاد الأطفال عما يضر بهم؛ فعن جابر بن

عبد الله - رضي الله عنهما - قال رسول الله ﷺ: «إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم؛ فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهبت ساعة من الليل فخلوهم، وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا»[١].

كان يوجه إلى التداوي وحفظ الصحة، وينهى عن الممارسات العلاجية الضارة؛ فعن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن أجر الحجام فقال: احتجم رسول الله ﷺ حجمه أبو طيبة، وأعطاه صاعين من طعام، وكلم مواليه فخففوا عنه، وقال: « إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري» وقال: «لا تعذبوا صبيانكم بالغمز[٢] من العذرة، وعليكم بالقسط»[٣].

ودخل ﷺ على إحدى زوجاته وعندها صبي يبعث منخراه دما فقال: «ما لهذا؟» قال: فقالوا: به العذرة. قال: فقال: «علام تعذبن أولادكن، إنما يكفي إحداكن أن تأخذ قسطاً هندياً فتحكه بماء سبع مرات، ثم توجره إياه » ففعلوا فبرئ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠١٢).

(٢) قال النووي في تفسيره: هو بغين معجمة مفتوحة ثمَّ م ميم ساكنة ثمَّ م زاي، معناه: لا تغمزوا حلقَّ الصبي بسبب العذرة ، وهو وجع الحلق ، بل داووه بالقسط البحري وهو العود الهندي .

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٩٧٦).

ويوجه صلى الله عليه وسلم للعناية بالصحة النفسية، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: دخل النبي ﷺ فسمع صوت صبي يبكي فقال: « ما لصبيكم هذا يبكي؟ فهلا استرقيتم له من العين؟»[١].

وكان يعنى بتلبية الحاجات النفسية، تقول عائشة رضي الله عنها: كان الحبش يلعبون بحرابهم فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف؛ فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو[٢].

فكأنها رضي الله عنها توجه من يتولون شأن الفتاة أن يراعوا تلبية حاجاتها النفسية، ومرحلتها العمرية التي يتعاملون معها فيها.

ومن تأمل المواقف العديدة في سيرته ﷺ التي كان فيها يبدي رحمته وشفقته على الأطفال، أو يعتني بملاعبتهم ومضاحكتهم، أو يعتني بأمور أصحابه كافة؛ أدرك ذلك واضحاً جلياً.

كما كان ﷺ يعنى بتربية العقول لدى أصحابه وستأتي إشارات إلى جوانب من ذلك في مبحث قادم، وهكذا سائر جوانب الشخصية،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٠)، ومسلم (٨٩٢).

وليس المقصود هنا استيعاب جوانب التربية النبوية إنما التأكيد على اعتناء النبي ﷺ بهذا الجانب.

إشكالات:

يعترض بعض الأفاضل على ذلك بإشكالات عدة، منها:

• أن بناء التدين والإيمان والتقوى أهم وآكد، وأن الوقت والإمكانات المتاحة لدى المربين غير كافية لتحقيق ذلك كله؛ حينها علينا أن ننشغل بالأهم ونترك ما دونه، لكن التعامل مع بناء الشخصية الإنسانية لا يتم بهذه التجزئة، وتفاوت الأهمية لا يعني إهمال ما هو أقل رتبة؛ فالسيارة - على سبيل المثال - تحوي قطعا وأجهزة عديدة تتفاوت هي الأخرى في أهميتها، لكنها نظام متكامل يؤثر الخلل في أحد أجزائه في أداء النظام بشكل كامل.

• أن الناس إنما يتفاضلون بالإيمان والتقوى؛ فالتقي الساذج البسيط أفضل عند الله من الذكي النابه الفاجر، وهذا ليس محل جدل، لكن مقام التربية هو إعداد وبناء للطاقات لتمارس أدوارًا فاعلة، وهذه الأدوار تتطلب بناء النفس بما يهيئ لها القدرة علىّ أداء هذه الأدوار، ولقد وعى أهل الحديث هذا الأمر ففرقوا بين صلاح الإنسان وتقواه وبين قبول حديثه وروايته.

غياب الرؤية

تتطلب خصوصية العمل التربوي للصحوة الإسلامية الاعتناء ببناء نموذج تربوي واضح المعالم تتكامل فيه عناصر المنهج التربوي، ومثل هذا الجهد والنموذج لا يمكن أن يتم من خلال جهد فردي، بل لا بد من جهود جماعية يتظافر فيها جهد المختصين وطلبة العلم والدعاة، ويبنى على أسس منهجية وعلمية.

إن الارتجال والعمل العشوائي لم يعد مجديا في عصر يعتمد على البناء العلمي والمنهجي حتى في المشروعات الشخصية المحدودة؛ فكيف ببناء الأجيال ورعايتها؟

ومن يتأمل الجهد التربوي اليوم يرى هناك شريحة واسعة من المربين بدأت بالتململ من العمل العشوائي، بل تجاوزت التململ إلى الاعتناء بالتخطيط والتنظيم، لكننا نطمح إلى أن يتجاوز التخطيط للعمل التربوي مجرد رسم خارطة للبرامج، وربما كانت مصحوبة بأهداف تغطي فصلاً دراسياً أو فصلين، لكنها تقتصر على العطاء المعرفي المباشر، وتفتقر إلى مراعاة جوانب الشخصية المتكاملة، فضلاً عن انفصالها عن مجاراة المتغيرات التي يعاني منها الشاب، وتلاؤمها مع شريحته العمرية.

كما أن هناك جهداً لا ينكر في تناول قضايا التربية عبر الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، وعبر الشبكة العالمية، لكن معظم المادة المقدمة إما في إطار الخواطر والآراء الشخصية، أو في تناول تطبيقات وعلاج مشكلات محددة.

إن التخطيط الزمني، ونقاش التطبيقات التربوية يقدم مادة ثرية، لكن الساحة لا تزال تعاني من فقر في إثارة الأسئلة الجوهرية حول قضية التربية، تلك الأسئلة التي تمثل المؤشر الذي يقود التطبيقات والتخطيط الزمني.

إننا بحاجة إلى إيجاد نظرية تربوية متكاملة تتلاءم مع المهمة التي يعد لها جيل الصحوة، وبحاجة إلى رسم صورة واضحة للمنتج التربوي الذي نسعى إلى تحقيقيه.

وهذه الأدوار بطبيعتها لا يمكن أداؤها من العاملين في الميدان، بل هي منوطة بالمفكرين وأصحاب الرأي والمختصين.

والرؤية بطبيعتها تقتضي أن تتسم بقدر من النظرة الكلية التي ترسم الأطر العامة لشخصية المنتج التربوي، دون أن تغرق في التفاصيل المحددة التي ينبغي أن تتسع فيها مساحة التنوع والممارسة، وتستوعب اختلاف البيئات والظروف.

كما أنها لا يسوغ أن تكون نتاج خواطر تجول في أذهان معديها، أو فكرة طرأت في محاضرة أو مناسبة، فلا بد أن تكون نتاج دراسة عميقة يتاح لها جهد يتلاءم مع أهميتها.

وهي تتطلب أن تنطلق من مصادر تجمع بين المنهج الشرعي في بناء الفرد المسلم، وظروف الواقع وتحدياته، وطبيعة المهمة التي يعد لها هذا الجيل، وأن تنسجم مع الرؤى العامة للعمل الإسلامي وتسهم في تحقيق أهدافه.

وتتطلب اتساعاً لدائرة المعدين لها فلا تكون نتاج اجتهادات فردية، ولا نتاج فئة أو أصحاب تخصص معين؛ فالرؤية التربوية تتضمن جانباً يتصل بمحتوى التربية الذي يسهم في بنائه العديد من المختصين في مجالات المعرفة، وجانبا يتصل بعمليات التربية الذي يسهم فيه العديد من المختصين في المجالات التربوية.

بناء العقول

العقل البشري طاقة هائلة حباها الله - عز وجل - الإنسان، والنتاج الهائل اليوم من الأفكار والمنتجات المادية والتقنية هو ثمرة من ثمرات العقل، كما أن النتاج الهائل من التدمير والفساد هو الآخر ثمرة من ثمرات العقل؛ فهو سلاح ذو حدين.

وقد يقود العقل الإنسان إلى الهداية والإيمان، وقد يقوده إلى الضلال حين يسيء سلوك الطريق.

ولقد مرت في تاريخ الأمة عوامل عدة أثرت على منهجية التعامل مع العقل وبنائه، وكان أبرزها عاملان:

العامل الأول: انتشار المنطق اليوناني وتوظيفه من قبل بعض طوائف المبتدعة وغلوهم فيه، حتى صار مقدما عندهم على الشرع، وتجاوزوا فيه الحدود التي ينبغي أن يقف عندها.

ولا شك في انحراف المنهجية الغالية في التعامل مع العقل عن منهج السلف الصالح، كما أن المنطق اليوناني نفسه كان عقيماً، وغير فاعل في إنتاج المعرفة والتعامل معها.

وأدى ذلك إلى ردة فعل لدى بعضهم في التعامل مع العقل، وحساسية مبالغ فيها في الموقف منه، ولعل وصف المدرسة الفكرية

المعاصرة اليوم بالمدرسة العقلانية زاد من تأصيل الموقف السلبي في التعامل مع العقل.

وقد أشار شيخ الإسلام – رحمه الله – إلى شيء من هذا الموقف: «لما أعرض كثير من أرباب الكلام، وأرباب العمل عن القرآن والإيمان، تجدهم في العقل على طريق كثير من المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له. وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه ويرون أن المقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذبه صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوله .. وكلا الطرفين مذموم، بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال الأعمال، لكنه ليس مستقلاً بذلك، فهو بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار».

العامل الثاني: كما أسهم في تغييب العقل وتهميشه سيطرة النمط التقليدي في التربية والتعليم، وهذا النمط يعتمد على التلقين والعطاء المباشر ويتجاهل بناء المهارات العقلية وتنميتها.

وحين نعود إلى القرآن الكريم نجد التأكيد على العناية بالعقل وتوظيفه في المجال الملائم له، وقد تنوعت دلائل القرآن على ذلك، فمنها:

• الامتنان بنعمة العقول:﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ الملك: الآية ٢٣، وجاء ذلك أيضا في كل من سورة النحل، والمؤمنون، والسجدة.

• الأمر بالتعقل والتفكر.

• ذم الكفار والمنافقين ووصفهم بأنهم لا يعقلون: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأنفال: ٢٢، ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾المنافقون: ٧.

• نقد مناهج التفكير الخاطئة.

• الاستدلال بالأدلة العقلية، وهذا يرد كثيرا في القرآن كآيات الطور: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ الطور: ٣٥، وكآيات الاستدلال على البعث بإنزال الغيث وبالحياة الأولى... إلخ.

ولم يرد في القرآن الكريم ذم العقل أو التحذير منه، بل الذم جاء لمن لا يعقلون ولا يفقهون، ومن يعطلون عقولهم.

وفي التعليم النبوي نجد النماذج العديدة التي كان ﷺ فيها يخاطب العقول وينميها، كحديث ابن عمر في النخلة[١]، وحديث بيع الرطب بالتمر[٢].

وحديث «إن امرأتي ولدت غلاما أسود»[٣].

وحديث: «إن أمي ماتت وعليها صوم»[٤].

وبناء العقول لن يتحقق من خلال التأكيد على أهمية العقل فحسب، ولا من خلال النعي على من لا يفكرون أو الدعوة إلى التفكير فحسب.

إننا بحاجة إلى بناء منهجية واضحة للتعامل مع العقول ولتنمية التفكير، ومن أبرز معالمها:

- تنمية الاتجاه نحو ممارسة التفكير، والتأكيد على دوره في المجالات كافة.
- إكساب المتربين مهارات التفكير وتنمية القدرات العقلية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٢٥)، وأبو داود (٣٣٥٩)، وابن ماجه (٢٢٦٤)، وأحمد (١٥٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٧)، ومسلم (١٥٠٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

• تنمية الاتجاهات العقلية السليمة كالانفتاح العقلي والمرونة الذهنية والحياد والموضوعية.

وهذا كله إنما يتحقق من خلال مجموع عناصر الموقف التربوي ومكوناته، فلا بد أن يستهدف البناء العقلي بحد ذاته دون أن يكون أمرا تابعا، وأن يتم تنظيم محتوى المعرفة ومعالجتها بما يسهم في تنمية التفكير والقدرات العقلية، وأن يراعى ذلك في طرق التعليم والتدريس، وأخيرا أن يوجد المربي الذي يملك هذه المهارات ويوظفها في حواره وحديثه وتعليمه.

ولا بد أن يؤكد هنا على ضرورة الانضباط والحذر من توظيف العقل فيما لا مدخلَّ له فيه؛ كأمور الغيب وما طريقه الوحي، أو إنشاء الأحكام الشرعية، أو عد العقل حاكماً ومهيمناً على النص؛ فثمت ثغرات منهجية كبرى عبر التاريخ، وفي عصرنا نراها نتيجة التطرف في التعامل مع العقل.

بناء المربينّ

إن أي منهج مهما كان إتقانه ونضجه لن يؤدي أهدافه ما لم يحمله مرب مؤهل.

ومع أهمية دور المربي وخطورته إلا أن الاعتناء بالمربين لا يزال دون المستوى المطلوب، والجهد المبذول في ذلك لا يقارن بالجهد المبذول للمتربين.

والملاحظ أن كثيراً ممن يتولون رعاية الشباب وتربيتهم لا يتلقون الإعداد والتأهيل الكافي لهذه المهمة، وغاية ما يملكونه هو التجارب السابقة التي عايشوها وهم طلاب مشاركون والغالب أنها مشاركة سلبية فهم في موضع التلقي المباشر، يضاف إلى ذلك بعض التوجيهات والإرشادات ممن سبقهم في الميدان وكثير منها مجرد آراء شخصية لهم.

وحين نرى أن هؤلاء يباشرون التربية والتوجيه للشباب وهم في مراحل مهمة من أعمارهم يزداد شعورنا بأهمية الاعتناء بإعدادهم وتنميتهم.

ومن التطلعات المنتظرة فيما يتعلق ببناء المربين ما يلي:

أولا: إعداد معايير ومواصفات للمربين:

مع وجود حرص وشعور بأهمية دور المربي وخطورة تأثيره، إلا أن اختيار المربين لا زال يفتقر إلى سمات محددة وواضحة، والمعايير السائدة إما أنها غير كافية، أو ينقصها الوضوح والتحديد.

وتعلو قيمة بعض الاعتبارات على حساب معايير مهمة وضرورية؛ فنضج الشخصيّةِ واتزانها، والقدرة على التفكير الجيد، ومهارات التواصل الفعال، والقدرة على إدارة الأفراد والتأثير عليهم... إلخ، هذه الصفات والمعايير لا تأخذ حظها الكافي من الاعتبار.

إن الحاجة ملحة إلى إعداد معايير محددة للمربين، مع الأخذ في الحسبان التوازن بين الرضا بالواقع والقبول بأي ضعف، وبين المثالية المفرطة.

والمعايير المتوقعة ينبغي أن تكون مهنية تتلاءم مع الموقف الذي ينتظر من المربي ممارسته، وأن تشتق من تصور واضح وواع بطبيعة المهمة؛ ففرق بين من يعجبنا بشخصيته ومهاراته، وبين صلاحيته لأن يكون مربيا .

ثانيا: التأهيل قبل العمل: من المسلمات أن من يعد لأي مهمة لا بد أن يتلقى المعرفة والخبرات والمهارات اللازمة لها، ثم التدريب العملي المصحوب بالإشراف والتقويم.

وهذا نشهده في خريجي الطب، والتخصصات التقنية، وكليات التربية وإعداد المعلمين... إلخ.

أما في الميدان الدعوي فالمربي لا يكاد يتلقى أي إعداد يتصل بالعملية التربوية، والإعداد الذي تلقاه كان موجها له بذاته بوصفه مستفيداً، ورغم أهمية هذا الإعداد والحاجة إليه إلا أنه لا يكفي عن إعداد خاص يتصل بالمهمة التربوية.

إنه بحاجة إلى قدر من المعرفة التربوية والنفسية، ومهارات، واتجاهات، وتدريب عملي يتم وفق إشراف منهجي.

ثالثاً: التدريب والتطوير أثناء العمل: حين نضع المعايير العلمية للمربي، والتي ستسهم في الاختيار، وقبل ذلك ستكون مصدرا في اشتقاق أهداف إعداد المربي وتأهيله، ثم نعده قبل تولي المهمة؛ فإن المطاف لم ينته؛ فمتطلبات الإعداد والتأهيل أوسع بكثير من أن تستوعب من خلال هذا الجهد المحدود.

إن واقعنا اليوم يعيش وتيرة هائلة من التسارع والتغير، وهو تغير يترك آثاره على حياة الناس المادية والاجتماعية والفكرية، والمتميزون اليوم بخبرتهم ومعرفتهم تصبح مهاراتهم فيما بعد جزءاً من التاريخ.

وقد أصبح التطوير وتنمية الموارد البشرية عنصرا مهما في بنية أي مؤسسة مهما كان نشاطها، وعاملاً من عوامل استمرارها في العطاء والمنافسة.

والتحدي في بناء الإنسان أكبر بكثير من التحدي في المنتج المادي، مما يفرض على المؤسسات التربوية أن تعنى بتطوير المربين والارتقاء بهم، وألا يتحول الأمر إلى نقطة فاصلة يودع فيها الشاب النمو وينتقل إلى مرحلة العطاء.

التوسع الأفقي

تركت الظروف التي نشأ فيها العمل الإسلامي آثارها على رؤية العمل التربوي والفئات المستهدفة فيه، ولم يتواءم العطاء التربوي مع التطلعات والطموحات؛ فلا زالت الفرص التربوية المتاحة للشباب أقل بكثير من أن تستوعب الشباب المحتاجين إلى الرعاية والتربية.

والحاجة ملحة إلى أن تتسع دوائر الاستيعاب في مستويات عدة:

فتتسع دائرة الاستيعاب الكمي لاستيعاب أعداد أكثر.

وتتسع دائرة الاستيعاب النوعي لتستوعب فئات أقل محافظة وجدية؛ فلا زالت التربية تقدم لفئة خاصة من الجادين، ومن لا يصل إلى المستوى المفترض منهم فلا بديل لديه.

وتتسع دائرة الاستيعاب العمري في كلا الاتجاهين؛ فتعنى بالطفل، وتتجاوز مراحلِّ التعليم العام لتهيئ فرصا ملائمة لمن يحتاجون إلى التربية ممن تجاوزوا هذه المرحلة العمرية.

ومن مجالات اتساع دائرة الاستيعاب العناية بتربية الفتاة، فالدور المنتظر منها لا يمكن أن تفي به مجرد جهود دعوية تركز على خطاب ألفته واعتادته، والجهد الموجه نحو تربية الفتاة لا زال في غالبه تقليدياً لا يتلاءم مع متطلبات المرحلة وتحدياتها.

ولن ننجح في توسيع دوائر العمل إن أصررنا على نموذج ونمط تقليدي اعتدنا عليه، وحين نشعر بأهمية توسيع الدائرة فإن ذلك سيدفعنا إلى تطوير آليات وأدوات جديدة تمكننا من تجاوز كثير من المعوقات والمشكلات.

كما أننا لن ننجح في تجاوز هذه المشكلة إن قصرنا تفكيرنا في الطاقات والإمكانات المتاحة، وأهملنا التفكير في أوضاع جديدة؛ فالمشكلات المزمنة لا تحل في الغالب من خلال حلول تقليدية، بل هي بحاجة إلى تفكير مفتوح وحلول إبداعية.

كما أن التوسع لن يتحقق له النجاح إلا حين يعاد النظر في أهداف العمل التربوي، وحين نمتلك مرونة عالية في الأهداف تتنوع حسب مستويات الفئة المستهدفة، ونتخلص من الثنائية المتطرفة في تقسيم الناس إلى مدعوين ومتربين، أو عامة وخاصة، أو صالحين وغير صالحين؛ فالحاجة إلى التربية أوسع بكثير مما نرسمها لأنفسنا.

إن المنتج التربوي يمكن أن يتنوع فنجد فيه القائد وطالب العلم والداعية، ونجد الشاب المتدين والفتاة المتدينة الناجحين في ميدان أعمالهم، ونجد المقصر المفرط في نفسه الذي يملك الخير ويحبه ويقف مع أهله، ونجد الفرد العادي الذي استطعنا الارتقاء بتأهيله وخبراته.

واتساع النظرة والأفق لهذا التنوع في المنتج لا بد أن يصحبه تنوع في مجالات التربية وأدواتها يكفل ألا يقود ذلك إلى خلل وإرباك؛ فنرضى من القائد بمواصفات المقصر، أو ننتظر من كل فرد أن يكون قائدا فاعلاً .

المفهوم الواسع للمنهج

حين نتحدث عن المنهج التربوي ينصرف الذهن إلى المادة المعرفية التي تقدم للشاب من خلال البرامج المنوعة التي يتلقاها، كما ينصرف الذهن في ميدان التعليم إلى الكتاب المقرر الذي يدرسه الطالب. والمنهج أوسع وأشمل من ذلك، فالوسائل والبرامج، وطرق التعليم والتوجيه، وأساليب الحوار، والبيئة التربوية هي جزء لا يتجزأ من المنهج التربوي.

والمتربي منتج للمنهج بعناصره كافة، بل هو يتجاوز المنهج المعلن إلى ما يسمى عند التربويين بالمنهج الخفي.

وبناء على ذلك فحين نكتشف مشكلات تربوية، أو نرغب في تحقيق أهداف جديدة فلا ينبغي أن نتجه إلى المحتوى المعرفي الذي يقدم للمتربين ونتجاهل العناصر الأخرى.

وحين نسعى لإعداد مناهج تربوية فلا بد من أن نضع هذه العناصر كافة في حسباننا، ولعل من تأمل التربية والتعليم النبوي رأى كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتني بطريقة التعليم والتوجيه، مما كان لها الأثر البالغ في تنمية قدرات أصحابه رضوان الله عليهم.

عصر الانفتاح

إن سيطرة النموذج المحافظ في بعض مجتمعات المسلمين على اختلاف في درجة المحافظة والانضباط، كما أن سيطرته على بعض شرائح المجتمع وأنساقه التي ننتمي إليها ونتعامل معها، إن هذا العامل ترك أثره في تربيتنا السابقة.

اعتنت التربية بالتلقين والتوجيه المباشر، وافترضت السلبية في المتربي، ورأت أنّ مهمته أن يسمع وينصت ويطيع، وبغض النظر عن جدوى هذه التربية حتى في المراحل السابقة فإنها لم تعد اليوم ذات جدوى.

واليوم أصبح المتربي يتعامل مع فضاء واسع يعج بالمتغيرات والمتناقضات، وازداد التحدي أمام المربين الذين وقفوا باهتين أمام هذا التغير فماذا عساهم فاعلون؟

يكثر الحديث اليوم عن المتغيرات وخطورتها على المتربين بفئاتهم كافة، وتتردد الشكوى من الواقع الجديد، لكن الأمر يجب أن يتجاوز مجرد تكرار الشكوى، أو المطالبة بمزيد من الحزم والجدية في التربية.

إنه بحاجة إلى مراجعة شاملة لمناهجنا التربوية بعناصرها كافة، ولا يمكن أن تكون المناهج والرؤى والأفكار التي أعدت فيما مضى

وكانت إفرازا لواقع وعصر له خصوصيته؛ لا يمكن أن تكون ملائمة لعصر الانفتاح الهائل.

وقد كان من منهج النبي ﷺ أن يرشد أصحابه إلى ما سيواجههم من متغيرات، ويوجههم إلى أساليب التعامل معها، فمن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

ومن ذلك أيضا حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ستكون أثرة وأمور تنكرونها» قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»(٢).

والشاهد من تلك النصوص أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد أصحابه إلى التغير الذي سيواجهونه، وإلى ضرورة التعامل مع هذا التغير بما يتلاءم معه.

إن المتغيرات تختلف وتتفاوت، فمنها: ما يكفي أن يحذر الناس منها، وتبين لهم الأحكام الشرعية المتصلة بها.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

ومنها: متغيرات ينبغي أن يضاف إلى التحذير والبيان أن نعلم الناس كيف يواجهونها ويتعاملون معها.

ومنها: متغيرات تتطلب منا أن نراجع تربيتنا لنؤهل الناس للتعامل معها بصورة سليمة.

إن التباكي على الماضي والانزعاج من الانفتاح لن يقدم شيئاً، فنحن أمام واقع لم نصنعه، ولسنا أصحاب قرار بالقبول والرفض، والمطلب المهم هو الارتقاء بتربيتنا لاستيعاب تحديات الانفتاح.

وهذا يتطلب الاعتناء بالبناء الداخلي للمتربين، وتزويدهم بمهارات التفكير والنقد والتمييز والموازنة، وتنمية القدرة على التكيف مع الأوضاع التي تفرض نفسها، وأن يكون خطابنا وحديثنا مقنعاً مبرراً لا يفترض في الآخرين السماع والإنصات فحسب.

ومن الأمور المهمة في هذا الإطار الاعتناء بتقوية الإرادة والقدرة على ضبط النفسُّ وتحمل المسؤولية؛ فما نراه اليوم من حالات التراجع والتقهقر أمام الشهوات نستطيع أن نفسر جزءاً منه بأنه نتاج ضعف إرادة وسيطرة على النفس، أو أن هذا الضعف أسهم في عدم قدرة الشاب على مقاومة هذه العوامل والمؤثرات.

وفرق بين أن نجتهد في تجنيب الشاب ما يؤثر عليه ونبعده عنه، وبين أن نربيه ونحن نفترض أنه سيتعرض إلى هذه المؤثرات.

ومن الأمور المهمة ذات الصلة بعصر الانفتاح تربيته على التعاطي الإيجابي مع الانفتاح، ومع معطيات التقنية، وعلى أن تتحول النظرة المتوجسة من الجديد، أو النظرة التي تختزل الجديد في السلبيات والمشكلات إلى الرؤية الإيجابية المتفائلة التي تبحث عن الفرص، وتسعى للتوظيف الإيجابي للمستجدات.

وبغض النظر عن طغيان السلبيات أو الإيجابيات فكثير من المستجدات ليست من صنعنا، ولا نملك إقصاءها من واقعنا أو رفضها، ومن ثم فالخيار العملي لنا هو التعاطي معها بإيجابية.

التعامل مع المخالف

يعد زوال كثير من حواجز الخصوصية من أبرز معالم التغير المعاصر في البيئة الدعوية، فأصبح الشاب يسمع ويقرأ أفكاراً عديدة تناقض ما يسمعه من المربين، ومن ثم زادت فرص تواصله مع من يحملون أفكاراً تخالف ما يتبناه.

وحين ينتقل إلى الميدان العملي فيمارس الدعوة فسيرى أن الناس لم يعودوا أولئك الذين يهزون رؤوسهم معجبين، أو يطرقون له منصتين وسيجد أن الكثير يناقشه ويعارضه.

إن هذا التغير يفرض على العمل الدعوي أن يعيد النظر في تربيته، ومما ينبغي مراعاته في ذلك ما يلي:

- توسيع دائرة تقبل الخلاف، والتخلي عن الحزبية الضيقة، فرغم الحديث المتعدد عن ذلك إلا أن الواقع العملي يعاني من أزمة حقيقية؛ فثمت إصرار من بعضهم على تضييق الخلاف وحصر الناس في إطار يرسمون حدوده هم، ويحددون فيه ما يقبل وما لا يقبل.
- الاعتناء بمهارات الحوار، وهي الأخرى لا تزال تعاني من غياب على مستوى القيادات فضلا عن المتربين، وكثير ممن ينادون

بالحوار ويؤكدون عليه يضيقون ذرعا حين يختلف الآخرون معهم، ويخرجون عن طورهم.

- تنمية القدرة على التعاون والتواصل والمشروعات المشتركة مع من لا يتفق في الرأي والاجتهاد، وتجاوز النظرة الحزبية.

- تنمية القدرة على التعايش مع المخالفين؛ فالشاب سيضطر في مواقف كثيرة إلى العيش في أجواء مع من لا يتفق معهم سلوكاً أو فكراً ومنهجاً، والمصالح الشرعية تقتضي الحكمة في التعامل، فهو يحتاج هنا إلى أن يجيد التعايش مع من يختلف معهم بصورة يتحقق فيها الاعتدال والتوازن بين الصراع والمواجهة غير المجدية، وبين المجاملة والمداراة على حساب الحق.

وهذه المتطلبات وغيرها ينبغي أن تستقر بوصفها ثقافة واتجاها لدى جيل الصحوة، ثم تتم التربية والتنشئة عليها.

التعلم الذاتي والتعامل مع المعرفة

تتسع دائرة الحاجة إلى التعلم فتتجاوز إمكانات المربين وقدراتهم، ويزداد الأمر إلحاحاً مع الوتيرة المتسارعة في التغيير والتطور، ومن ثم فلا يمكن لأي تربية مهما أوتيت من إمكانات أن تقدم للمتربين كل ما يحتاجونه.

لذا؛ فيتأكد الاعتناء بتنمية مهارات التعلم الذاتي لدى الشباب، بحيث تنمو قدرته على التعلم بنفسه، وعلى توظيف الوسائل المتاحة للتعلم الذاتي التي تنمو يوما بعد آخرّ.

والحاجة ملحة إلى إعداد مواد تعتمد على التعلم الذاتي تلبي حاجة الكثير من الشباب في العالم الإسلامي للتعلم.

كما أن اتساع دائرة المعلومات وتطور تقنيات حفظها والبحث فيها يفرض على المربين أن يكون ضمن برامجهم تربية الشباب على التعامل الفاعل مع مصادر المعلومات؛ فقد انتهى الوقت الذي تفترض فيه مؤسسة تربوية أو تعليمية أنها ستقدم للمتعلم كل ما يريد.

إن تربيتنا اليوم تخفق كثيراً ويتجاوزها القطار؛ إذا يفترض المعلم والمربي أنه سيبقى القناة التي يجب أن تعبر معها المعرفة والثقافة، وسيمثل حارساً على البوابة والعقول.

يحتاج الجيل المعاصر اليوم إلى أن يتعلم مصادر المعرفة وكيف يصل إليها، وكيف يعالج المعرفة ويحللها ويستنبط منها، وكيف يوظف المعرفة التوظيف الإيجابي.

وتعليم عمليات العلم ومهاراته أولى بكثير من التزويد المباشر بالمحتوى المعرفي.

الإبداع والمبادرة

يتسم العصر الذي نعايشه بأنه عصر السرعة، فالمتغيرات متلاحقة، والفرص الجديدة المثمرة لا تعدو بعد برهة أن تكون جزءا من الماضي؛ فالذين لا يتسمون بالمبادرة ستكون فرصهم في الإنجاز والنجاح أقل من غيرهم.

ويضاف إلى ذلك التعقيد المتزايد الذي أصبح سمة للعصر وترك أثره على المجالات كافة، بما فيها المجالات المستهدفة بالدعوة.

والحلول الملائمة للمشكلات المعقدة ليست هي الحلول التقليدية؛ فالحاجة ملحة إلى تفكير إبداعي ينتج مشروعات وأفكاراً تتجاوز المألوف.

في مقابل هذه الحاجة الملحة إلى المبادرة والإبداع نتساءل: هل تربيتنا تنتج الإبداع والمبادرة؟ إننا نشعر بالمشكلة، وكثيراً ما نتحدث عنها، وكثيراً ما نطالب بالمبادرة والإبداع، لكن تجاوز هذه المشكلة لن يتحقق بمجرد التناول المعرفي لها أو التأكيد على ضرورة تجاوزها؛ فالبيئة التربوية والنظام السائد في المؤسسات التربوية له أثره البالغ في التحفيز على المبادرة والإبداع أو تثبيطها.

فالتعامل غير المعقول مع مفاهيم الانضباط والاستشارة، وسيطرة النمط المركزي في الإدارة والتوجيه؛ سيكون على حساب المبادرة والإنجاز، وقد يخرج جيلا يستشير وينضبط لكنه لا يبادر ولا يتحمل المسؤولية.

وفي التاريخ الإسلامي كان للمبادرة أثرها في حسم كثير من المواقف، ومن ذلك: موقف خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في غزوة مؤتة، وموقف عتاب بن أسيد - رضي الله عنه - في مكة، وموقف زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم رأى اعتناءه بتنمية روح المبادرة لدى أصحابه وتشجيعهم على ذلك وفتح ميادين العمل لهم فرأينا أثر هذا كله فيما صنعه أولئك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

والنموذج التقليدي في الإدارة والتفكير، وغياب الحرية والتنوع، وإعطاء الهالة للمربي وأنه يدرك من المصالح ما لا يدركه المتربون؛ كل ذلك له أثره في غياب التفكير والبيئة المشجعة على الإبداع.

الخاتمة

ما كتب في هذه السطور لا يتجاوز كونه خواطر وآراء يرى صاحبها أنها جديرة بالتأمل والمناقشة، وأن كل مجال مما ذكر يحتاج إلى مزيد من البحث والمراجعة.

إن العاملين للإسلام اليوم أمام تحد تربوي ضخم، يتمثل في بناء الإنسان الفاعل القادر على إحداث التغيير الإيجابي في مجتمعه، ويزداد هذا التحدي مع التغيرات المعاصرة والانفتاح الهائل.

ومهما بلغت التحديات وزادت الخطوب فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، والإسلام دين الله الخالد إلى يوم القيامة، والناس قادرون على أن يلتزموا بدينهم مهما تغيرت الأحوال والأزمان.

لكن هذه القدرة تتطلب بذل الجهد، وهو جهد طويل، وجهد نوعي، وجهد لا يرتبط بالضرورة بالأدوات المتاحة بين أيدينا بل يتطلب منا امتلاك الأدوات وصناعة الآليات.

وهو يتطلب أن ننظر إلى تجربتنا الماضية نظرة واقعية متزنة، لا تفرط في التغني بالنجاح والأمجاد، ولا تبالغ في اللوم وجلد الذات، ولا تنطلق من ردود فعل غير معتدلة.

إننا بحاجة إلى التعامل الموضوعي مع الماضي ومع معطيات الواقع، التعامل الذي لا يفرط في التحفظ والانغلاق خشية من المشكلات، ولا يفرط في التغيير لذات التغيير.. التعامل الذي ينظر إلى الجهد والتجربة البشرية على أنها بشرية لا يمكن أن تتحول إلى ثوابت أو أن تكسب العصمة لصلاح نية أصحابها.. التعامل الذي يحافظ على الثوابت ويعزز الهوية وفي الوقت نفسه يتفاعل مع معطيات الواقع.

أسأل الله أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه، وأن يرينا الحق حقّاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

د. محمد بن عبدالله الدويش

dweesh@dweesh.com

١٤٢٩/٢/٣هـ

الفهرس الموضوعي

المقدمة ٥

تجربة متميزة.. ٨

حتمية المراجعة ١٤

لماذا المراجعة؟ ١٥

المراجعة المطلوبة: ١٦

التربية الإيمانية.. ١٩

مهمة المربي ٢٢

التربية المستمرة.. ٢٦

الدراسات العلمية.. ٢٨

الاتجاهات الحديثة.. ٣٠

مجالات الإعداد.. ٣٤

بناء الشخصية أم تحقيق التدين؟.. ٣٦

غياب الرؤية.. ٤٣

بناء العقول ٤٦

بناء المربينّ ٥١

التوسع الأفقي........................ ٥٥

المفهوم الواسع للمنهج ٥٨

عصر الانفتاح........................ ٥٩

التعامل مع المخالف ٦٣

التعلم الذاتي والتعامل مع المعرفة........................ ٦٥

الإبداع والمبادرة........................ ٦٧

الخاتمة........................ ٦٩

الفهرس ٧١